الاتجاه القومي في شعر الدكتور نوري القيسي

أ.د. أيهم عباس القيسي
كلية الآداب / جامعة بغداد

الحديث عن شاعرية الدكتور نوري القيسي – طيب الله ثراه – لا ينفصل عن الحديث عن المواهب التي كان يتصف بها الراحل . ولعلني وبحكم الصلة التي تجمعني به ، وقربي منه قادر على تقديم نبذة موجزة عن المراحل الأولى من حياته ، لأنني أجد فيها المنابع الأولى لشاعريته .

لأن الراحل القيسي لم تكن تغيب عن باله صورة تلك الأيام ، ولا ينسى طعم تلك الليالي البغدادية الجميلة ، وهو إبن عائلة بغدادية عُرفت بالورع والتقوى، وأكسبتها تنشئة المحلة وطبيعة القيم السائدة فيها ، وجو بغداد وأيامها، وكلها تلتقي في أطار الجو الذي يشيع في هذه المناطق ، وهو يمزج الثقافة بالشعر والموسيقى بالأدب والسياسة بالوطنية والمروءة بالسماحة لتزدهي مجموعة من القيم الكريمة والخلق النبيل والصفاء الذي يضفي على الجميع روح التعاون ويخلق العالم الكبير الذي تطمح إليه كل النفوس الخيرة ، والشاعر الذي يعي هموم مجتمعه ، والذي ترسخت في نفسه عناصر الوطنية .

وفي مثل هذه البيئة الضيقة يبرز أعلام كبار وتزدهر مدارس ويتابعها كتّاب وشعراء ومثقفون ، ويبرع فيها علماء ومفكرون ، في مثل هذه البيئة الخصبة تفتحت موهبة الدكتور نوري شاعراً .

فقد برع في قول الشعر وهو طالب في المرحلة الأعدادية ، إذ يدفعه الحرص هو ومجموعة من زملائه في الدراسة هم جلال محمد نوري وعدنان صالح الجبوري المحامي لإصدار كراس في عام ١٩٤٩ عن المقام العراقي

ترجموا فيه لرواد المقام ، وقاموا بإهداء هذا الكراس إلى المرحوم محمد القبانجي، حيث قدّم لهذا الكتاب الصغير الدكتور نوري بأبيات منها :

غَرِّد بلحنك وأنشرْ رايةَ الوادي واطرب رُعاةَ الفلا باللحن يا حادي
وانعمْ بفنِّكَ يا غريدُ وأنشدتا فغيرُكَ اليومَ لم يُطرب بأنشاد

وتكرّمه الأعدادية المركزية ، وهي المدرسة التي أكمل فيها الراحل دراسته الأعدادية في ٢٨/نيسان/١٩٥٠ بجائزة شاعر المدرسة وهي عبارة عن مجموعة كتب منها (ديوان المتنبي ، وديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات).

ومن أوائل القصائد التي نشرها القيسي قصيدة (أهواك) موجهة إلى حبيبته بغداد ، التي ما أنفكت تداعب قوافيه في مراحل حياته فقد نشرت له جريدة اليقظة الفكرية في عددها ذي الرقم (١١١١-في ١/آيار/١٩٥١) قصيدة نذكر منها :

أهواكِ يا أرضَ العروبةِ فأمنحي طرْفي السُهادَ وعذبي أهواكِ
وتعسفي فالجورُ منكِ تطرّبٌ للمخلصينَ الرافعينَ لواكِ
الصامدينَ على الخطوبِ تجلداً والنّاذرينَ قلوبَهم لثراكِ
أهواكِ سيفاً في الجفونِ موسداً يشكو الخضوعَ لماجنٍ أفّاكِ

ويتواصل القيسي وهو الرجل الذي يفيض إنسانية وتواضعاً مع الحياة ، والشعر بالنسبة إليه متنفسٌ يعبر من خلاله عن مشاعر الود والمحبة ، لأصدقائه وزملائه فلا يترك مناسبة لصديق أو عزيز ، ولا احتفاءً بعالم أو باحث إلا وقرضه شعراً .

ومما يروى عن هذا التوجه لدى الراحل القيسي ، أنني وجدت قصيدة بخطه موجودة في عيادة أحد الأطباءمن أصدقائه يشيد فيها ببراعة هذا الطبيب ومهارته .

وحدثني أحد الأصدقاء الأعزاء بعد رحلة إلى ألمانيا ، عن مقدار الحب والمودة التي يكنها بعض المستشرقين الألمان للراحل القيسي ، وكذلك بعض العراقيين المقيمين فيها . ومن معاني الود التي كانت تجمع القيسي بهم ، أنه نظّم قصيدة أخوانية قرض فيها صديقاً له هو الدكتور (سعد درويش) المقيم في ألمانيا، وقد قام الأخير بتأطير هذه القصيدة وجعلها في صدر غرفة استقبال ضيوفه .

ومثل هذه الالتفاتات كثيرة في مسيرة الدكتور نوري ، فلم يترك مناسبة أقيمت في رثاء معارفه أو أصدقائه أو زملائه من منتسبي كلية الآداب ، أو المجمع العلمي العراقي إلا رثاه فقد رثى الأستاذ الدكتور أحمد عبد الستار الجواري والدكتور جميل سعيد والأستاذ كوركيس عواد وغيرهم كثيرون .

فالشعر بالنسبة له طاقة حية ، يمتلك أدواته وهي طوع بنانه ، هيأتها له ثقافته الواسعة وتبحره العميق في التراث وإيمانه الراسخ بالله تعالى ، وعقيدته الصادقة ، وحبه لشعبه وأمته حباً لا يوصف .

وقد أصدر الراحل ثلاث مجاميع شعرية : الأولى (من أراجيز القادسية) عام ١٩٨٧ وقد ضمت جانباً مما قاله من أراجيز وطنية وقومية في قادسية صدام المجيدة . والثانية (بطولات خالدة أصدرها في عام ١٩٨٩) . إذ أستكمل فيها ما أنشده للقادسية من أناشيد النصر ، وأغاني الزهو بقدرة العراق واقتدار شعبه وقيادته .

ثم صدرت له المجموعة الثالثة وهي (وترتفع راية الجهاد في أم المعارك) في عام ١٩٩٢ وسجل فيها قدرة البطولة العراقية في مواجهة الحلف الثلاثيني الغادر ، فضلاً عن عشرات القصائد والمقطوعات الشعرية التي تؤرخ

لأحداث عاشها الراحل في حياته ، قسم منها موجودة في مكتبته والأخرى موجودة لدى أصدقائه ومعارفه .

لقد أذكت القادسية المجيدة وأم المعارك الخالدة جذوة الشعر في نفس الراحل القيسي ، فتفجرت في نفسه ينابيع الشعر ، فكانت مجاميعه الثلاثة ثمرة المعايشة الحقيقية والتفاعل الصادق مع أحداث القادسية وأم المعارك الخالدة .

فقد جاءت مجموعة بطولات خالدة لتسطر روعة المواجهة العراقية طوال ثماني سنوات من البطولات الفذة والتضحيات السخية التي سطّرها أبناء العراق الغيارى . فكانت شاهداً حياً يؤرخ لكل المعاني التي أفرزتها القادسية المجيدة ، وأيامها الخالدة . وقد حرص الراحل القيسي على أن يسجل بقصائده التي اكتنزت بها هذه المجموعة كل المعاني الخيرة التي كان يقاتل من أجلها العراقيون .

وأتت مجموعته (وترتفع راية الجهاد في أم المعارك) لتبرز أكثر من قيمة وتظهر أكثر من دلالة من دلالات الوفاء للوطن والأمة ، وكما يذكر الدكتور نوري في المقدمة : (فالعراق هو العراق تحج إليه مواكب العرب ، لتأخذ هويتها الوطنية والقومية ، وبغداد هي بغداد التي يجرّ العرب إليها أنفسهم ليخفوا عيوب النفس ، وفساد الضمير ، والعراقيون الأماجد هم العراقيون الشوامخ الذين لم ترهبهم أساطيل العالم الظالم ولم تفقدهم عزتهم آلاف الأطنان من القنابل ... فبغداد بكل عوالمها ، تتربع على مجد التاريخ ، تياهة بأبنائها ومحبيها وعشاقها)[١] .

فجاءت قصائد هذه المجموعة مضمخة بأريج البطولة ، ومعطرة بروح المعايشة الوجدانية التي واكب فيها الدكتور نوري جحافل العراقيين وهي تذود عن الحمى ، وتدافع عن المقدسات . وقد عالج الراحل قضايا أمته وشعبه وأحتلت بغداد مكان الصدارة في اهتماماته وحظيت بنصيب كبير من شعره .

ولم يكن القيسي وهو الإنسان المرهف الذي يفيض رقة وإنسانية بعيداً عن أحداث عصره ، ومعاناة شعبه ، بل شارك مشاركة فعالة في جميع النشاطات

والفعاليات الوطنية والقومية التي كانت تستهدف تأكيد وحدة الأمـــة ، ودعـــوة الشعب العربي للعمل المخلص لتجاوز حالة الإنقسام ، وفضح أبعـــاد السياســـة الاستعمارية التي تتحمل مسؤولية التجزئة وتمزيق وحدة الأمة .

لقد كان واضحاً أن الراحل القيسي قد تأثر تأثراً بالغاً بما كان سائداً مـــن أحداث سياسة عاصرها ، وتفاعل معها ، وكان له جهد واضح فيما نشـــره مـــن شعر، وما أبدعه من مقالات ودراسات في تأكيد أن العراق جزء من أمة كبيـــرة ذات ماضٍ مجيد ، ومقومات مشتركة تجمع بين أبنائها .

وقد أسهم الدكتور نوري بكل ما أوتي من موهبة الشعر وملكة القول في تعميق المشاعر القومية ، لتعود الأمة كما كانت قوية موحدة عزيـــزة . فتغنـــى بالدعوة إلى القومية ، على الرغم من مرارة المرحلة التي عاصرها ، فقد كـــان إيمانه بقدرة الشعب وأستجابته إذا دعا داعي النزال عميقاً وقوياً ، لأنه واثق من إمكانيات الأمة وقدرتها ، وحديثه في هذا الجانب حديث مفعم بالحب والأعتزاز ، فأمتنا تدعو إلى الخير ، ووطننا هو وطن الأمجاد الذي عاش العز والزهو ليالي طويلة . وقد أشار إلى ذلك في قوله :

فكنـــا أمـــــة تدعـــــو　　إلى الخيـــر أمانينـــــا
وكنـــا وطـــن المجـــد　　الذي عاش لياليـنـــــا[٢]

وحين يتحدث الراحل القيسي عن بطولات أمته وأمجادها تشعر بالصـــلة الحميمة بينه وبين أمته التي هي مصدر البطولة والعزة والمتعة ، وقد أشار إلى ذلك في قوله :

وتحيـــا على ذكر البطولـــة أمـــــة　　أبت – عزة – أن يستباح لها شبـــر
بأي حديث يستطاب لكـــم ذكـــــــر　　وأنتم على الأيـــام أنشودة بكـــــر
مشيتم فكان العزم صـــوت رجولـــة　　وجزتم دروباً عزّ في مثلها السيـــر[٣]

وعندما يتحدث القيسي بهذه الروح العربية الأصيلة ، فأنه واثق من قدرة الأمة ، وأقتدار أبنائها في المواجهة ، فهم حملة الوية الرسالة ، ومشاعل الهداية للبشرية ، وهي التي رفعت راية الإسلام خفاقة ، حيث يقول :

يا أمةً رفعت للدّين رايتَها واستذكرتْ من صدى الماضي بواقيه
كتبتِ بالعزّ ما عاشتْ عوالمُهُ نديةَ الذكر ترويها معانيه(٤)

إن من السمات البارزة التي أنطبعت بها حياة الراحل القيسي ، هي الحب العميق ، والتفاعل الصادق مع قضايا الشعب والأمة . فقد عاشت هذه الهواجس الخالدة حية في ضميره وروحه ، وعبر عنها بكل صدق وأخلاص في كتاباته . وقد أستمد من هذه الهواجس الإنسانية العديد من المعاني والصور . فحين يفخر القيسي بمجد أمته وعزها ، فأنه يستعين بتاريخها في أستلهام معاني النصر ، ليثبت الحقائق ويؤكدها بالأدلة ، ويقدم نموذجاً حياً في إمكانيتها على بناء ذاتها وقدرتها على انتزاع حقها إذا ما سارت بالأتجاه الصحيح . فيقدم لنا صورة من ذلك الماضي التليد في قوله :

تيهي على المجدِ يا صوتَ الوفا تيهي
واستذكري العزّ في أحلى لياليه
واستلهمي ذكريات النصر من ألقٍ
عاشت خوافقُهُ تطوي أمانيه
مذْ كان فجرُك تيّاهاً برائعةٍ
تتيهُ غُرُّ المعاني في قوافيه(٥)

ولا يخامر القيسي أدنى شعور بقدرات الأمة في جميع أقطارها على أن تأخذ دورها ومكانتها اللائقة بها ؛ لأن تراثها حافل بالمآثر ، وزاخر بجلائل الأمور ، فمن أطراف يثرب أنطلقت قوافل الإيمان هادرة تمتثل لأمر الله تعالى ، وتنشر الإسلام ، فدانت لها أمجاد كسرى وهرمز ، وولت فلول الفرس مذعورة ذليلة وقد عبّر عن ذلك في قوله :

هو المجد من أطراف يثرب أشرعت قوافله يرتاع من هولها الذعر
فدانت لها أمجاد كسرى وهرمز وروع رعباً من سنابكها القصر
وهامت فلول الكافرين ذليلة فلا البرّ يأويها – طرادا – ولا التهر[٦]

ويقدم الراحل القيسي صورة تنبض بأقتدار الأمة وإمكانياتها الكبيرة من خلال طليعة الأمة العراق ، قلعة العروبة ، وقلبها النابض . فالعراقيون أبناء يعرب ، وهم أسود الحمى ، وفي وقفتهم في القادسية المجيدة جسدوا بطولات الأجداد ، ففيهم تتدفق بطولات عاصم والقعقاع ، وبأقتدارهم زها عزّ العرب ومجدهم ، فقال في ذلك :

ربضتم على الأحواز أشبال يعرب وكل تراب من مرابعها نشر
تنسم في أنفاسكم عزّ عاصم ومن صولة القعقاع خالطه عطرُ
فما أينعت زهواً بغير علاكم ولا شدها يوماً إلى غيركم نذرُ[٧]

ويظهر جلياً وعي الشاعر وإدراكه لقدرات الأمة ، وعناصر قوتها ، ولهذا فهو يحث أبناء الأمة على استلهام أمجاد أمتهم وتسخير قدراتهم ليكونوا رديفاً للعراقيين في دفاعهم المقدس عن شرف الأمة . مثلما حملت من قبل معد السيف ، ورفعت شيبان رايات النصر فأحرزوا النصر ، وأنهزم الفرس المجوس مذعورين خائبين ، فقال :

فقامت معد تحمل السيف والقنا وكل بنيها من معاقلهم هبوا
وقد رفعت شيبان رايات نصرها وقيس بن عيلان تناهى بها الرحب
فدارت على الفرس المجوس رحاهم وكان لهم في كل ملحمة ضرب
فراحوا وقد ضاقت بهم سبل اللقا خزايا طواها الموت والخوف والرعب[٨]

فقد أدرك الراحل القيسي بحسه القومي الأصيل ومشاعره العربية المخلصة حقيقة الوحدة العربية ، وأهميتها في بناء غد الأمة ، وأن الأمة لا يمكن أن تكون قوية إلا بوحدتها واجتماع شملها ، ولهذا كانت الدعوة إلى القومية هي السمة البارزة في شعره ، والعلامة المميزة التي طبعت فكره .

الهوامش :

١ . وترتفع راية الجهاد في أم المعارك / المقدمة ٤-٥ .

٢ . بطولات خالدة / ٢٩ .

٣ . المصدر نفسه / ٣٤ .

٤ . وترتفع راية الجهاد في أم المعارك / ٤١-٤٢ .

٥ . المصدر نفسه / ٣٨ .

٦ . بطولات خالدة / ٣٦ .

٧ . المصدر نفسه / ٣٧ .

٨ . المصدر نفسه / ٤٩ .